الفتح الاســـلامى

للأستاذ على الطنطاوى

لما وثب الألمان تلك الوثبة ، فطحنوا جيوشاً ، ودوّخوا ممالك ، وطمسوا فى مصور أوربة حدوداً ومحوا دولا ، وأخذتهم العزة بالإثم والعدوان ، فقال فرعونهم : أنا ربكم الأعلى ! ...

وقام من بعدهم اليابان ، فقفزوا كالجنّ على جزر المحيط ، وحازوا أطراف الشرق ، وتمّ ذلك فى اللمحة الخاطفة ، كأنه حلم نائم ، أو كأنه سحر ساحر ...

... أذاع مذيع (عربى ...) من محطة لست أسميها ، يمجد هذا النصر ، ويفرغ فيه كل ما يملأ رأس الضعيف من الاعجاب ببطولة القوىّ ، وكان مما وسوس له به شيطانه أن قال : (هذا هو الفتح ، لافتوحاتنا التى لم نملّ من الفخر بها وقد مضى عليها ألف وثلثمائة سنة) !

وقالوا : ردّ عليه ، وضَعْ فى فمه حجراً . قلت : لا ! إنه لم يأن أوان الردّ عليه ، فانتظروا ، فانها ستردّ عليه الأيام .

وها هى ذى الأيام قد قالت فأبلغت ، وردّت فألحمت ، ولكن أين ذلك المذيع ليستمع ويفكر ، فيرى فتوح هتلر كفتوح تيمورلنك ، عاصفة عاتية مدمرة ، تهب على الكون فتقتلع الأشجار ، وتهدم البنى ، وتدحرج الصخور ، ثم تضعف العاصفة وتضمحل ، ولا تدع وراءها إلا الموت والخراب والفوضى ! وما أسهل الهدم ، وما أهون القتل ! إن كلباً عقوراً يقتل أعظم نابغة فى الدنيا . وأكبر عالم فى الأرض لا يستطيع أن يخلق ذبابة . والبناء الفخم الذى ينشئه مائة مهندس بارع ، يهدمه اللص بقنبلة واحدة ، أو يحرقه بعود كبريت ... والسفينة المدرعة العظيمة التى يجتمع على إنشائها الآلاف ، ويمضى العمر ، يغرقها مجنون فى ساعة ... كذلك كان فتح تيمورلنك وهتلر ... وأين اليوم هتلر وتيمور ومن كان بينهما من فاتحين وغزاة مظفرين ؟ وأين من كان قبلهما ؟ لقد طواهم الزمان ، فلم يبق منهم إلا قبور تحتها رفات رميم ، أو صحائف فيها مجد ميّت ، وربما أغرقهم السيان فى لجته ، فلم يمنحهم قبراً على الأرض ، ولا ذكر التاريخ ... وكذلك الفتوح التى تفخر بها الأمم ، ويشغل الطلاب فى المدارس ، كلها فتوح قوة وتغلّب ، فاذا مات القوىّ ، أو قوى الضعيف ، عاد الغالب مغلوباً ، والمغلوب غالباً

أما (الفتح الاسلامى) فسيح وحده فى تاريخ البشر لا يشبهه فتح ولا يدانيه ولا يقاس به . إن هذا (المذيع) جاباً واحداً منه ، وخفيت عنه جوانب : رأى الظفر فى العدد والغلبة فى الميادين ، فقاسها على أشباهها ونظائرها ، وتحكم بما أوصله إليه عقله ، وما دفعه إليه هواه ... أما الجوانب لم يرها ، فقد وصفها الامام العبقرى ابن تيمية بكلمة جامعة لو كان إعجاز بعد القرآن ، لقلت إنها من معجزات البيان ، (إن المسلمين الأولين لم ينقلوا الإسلام إلى الأمم ، ولكن الأمم إلى الإسلام) . إن فى هذه الكلمة القصيرة سرّ الإسلامى ومزاياه وعلة بقائه واستمراره ، وهاك بعض البيان

إنها لم تدر فى الأرض رحى الحرب ، ولم يطأها جيش فاتح إلا ابتغاء أرض يضمها الفاتح إلى أرضه ، أو شعب يحكمه شعبه ، أو غنائم ينالها ، أو ثأر يطلبه ، أو خيرات يستولى عليها أو كنز يملكه ، هذه هى غايات الحروب ، وهذه مقاصد الفاتحين

أما المسلمون فقد خرجوا يُعلنون كلمة الله ، وينشرون دينه يبذلون فى سبيل ذلك دماءهم وأرواحهم ، ويفارقون من أحبّ ديارهم وأولادهم ، لا يريدون علواً فى الأرض ولا استكباراً ولا يبتغون دنيا ولا يريدون مالا . وهذه هى المزية الأولى .

وكانت غايتهم إصلاح البشر فى أخلاقهم ومعايشهم ، وسعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم ، فكانوا يحملون إليهم مفتاح هذه السعادة ، وهو القرآن ، فان كانوا عقلاء وقبلوا الهداية واستجابوا لها ، وارتضوا هذه السعادة ورحبوا بها ، كفّوا عنهم ولم يقاتلوهم ، وإن لم يقبلوا وركبوا رؤوسهم عناداً ، ولم يحبوا يجلبوا لأنفسهم النفع ويمنعوا عنها الضرر ، عدّوهم كالأولاد القاصرين أو المتوهين والمجانين ، لابد لهم من وصىّ يقوم عليهم ويصرّف شؤونهم فيما فيه صلاحهم ، وفرضوا عليهم أجرة قليلة هى كأجرة الوصىّ الأمين ، فإن دفعوها برضائهم قبلوا منهم وإن والوا عنادهم وأبوا إلا الإفساد فى الأرض ، وأذى أنفس

وإخوانهم فى الإنسانية ، دعوهم إلى الحروب ، لأن الإسلام يرى البشر كلهم كراكبى السفينة إذا أراد أحدهم أن يخرق موضعه ، كان عليهم أن يمنعوه ويكفوه ويضربوا على يده ، لئلا يهلك نفسه ويهلكهم معه ، فكأن الإسلام وصل منذ أربعة عشر قرناً ، إلى ما تسعى إليه الآن ولا تدنو منه (هيئة الأمم المتحدة) . وهذه هى المزية الثانية .

وكانوا إذا حاربوا ، حافظوا على شرفهم ، وأقاموا على كرمهم فكانوا أشرف محاربين عرفهم ظهر هذه الكرة ، لا يغدرون ولا يمثلون ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يحاربون امرأة ، ولا يعرضون لعاجز ، ولا يمسّون معبداً ولا يؤذون متعبداً ، ولا يخربون داراً ، ولا يفسدون ماء ، وإن هذه الخلائق فى الحرب لتعدّ غريبة فى هذا القرن ، الذى يسمونه (قرن العشرين) ، ويزعمون أنهم بلغوا فيه نهاية الارتقاء ، وذروة المدنية ، فكيف وقد جاءت فى القرون (المظلمة ! !) التى يسمونها القرون الوسطى ؟ ! هذه الثالثة .

ولم يكن يلهيهم عن غايتهم مال ، ولا يشغلهم جاه ، ولا ينسيهم هذه الغاية خطر ، فكانوا إذا اشتد الخطب ، وادلهمت المعركة وعبست ، يلجأون إلى الله الذى حاربوا من أجله ، وقاتلوا فى سبيله . هذا قتيبة بن مسلم الفاتح المظفر ، يثب عليه كمين من الترك ، ويقع بين حجرى الرحى ، فيقول : انظروا إلى محمد بن واسع ماذا يصنع ؟ فيقولون : هو قائم هناك يشير بأصبعه نحو السماء ، فيشرق وجهه ويطمئن ، ويقول : والله لهذه الأصبع أحب إلىّ من عشرة آلاف سيف يشهر ، أقدموا على بركات الله .

وكانوا يعملون لله وحده ، لا لجاه ولا لذكر . هذا بطل الدنيا وعبقرىّ الحروب خالد ، يعزله عمر فيقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً ، لأن الله لا يجزى القواد وحدهم ولكنه يجزى كل عامل مخلص . وهذا رجل لا يعرفه أحد ، يفعل الفعلة التى تكسبه مجد الدهر ثم يخفى اسمه ولا يعلنه ويقنع بثواب الله : يلقى المسلمون فى معركة من المعارك شدة وكيداً من أحد أبطال العدو ، فينادى قائدهم إن من قتل هذا الرجل فله ألف دينار ، فلا يصبحون إلا ورأسه ملقى فى خيمة القائد ولا يعرف من قتله ، ويسألون فلا يجابون ، فيقوم القائد فيقول : أنشد بالله من فعل هذا ، إذا كان يسمع كلامى ، إلا خرج إلىّ . فيخرج رجل لا يعرفونه ، فيسأله : أأنت فعلت هذا ؟ فيقول : نعم . فيقول : خذ الجائزة فيأبى ، ويقول : إنما فعلت ذلك لله وحده . فيقول له : ما اسمك؟ فيقول : وما لكم ولاسمى ، أتريدون أن تنشروه فى الناس ، فتضيعوا علىّ ثوابى ، وتفسدوا علىّ نفسى ، دعونى .

ووقعوا — وهم المصحرون المعدمون ، الذين كانوا يأكلون القد ، ويتبلغون بالتمرة — وقعوا على كنوز كسرى ، وإن الحبة الواحدة منها يأخذها الرجل تغنيه وتغنى ولده من بعده ، وما يراه إلا الله ، فلم يغلّوا منها شيئاً وأدّوها كاملة ، لأن نبيّهم نهاهم عن الغلّ ، ولأنهم إنما خرجوا لله ، لا للمال ولا للكنوز! هذه الرابعة.

ثم إنهم إذا دخلوا بلدة لم يحملوا إليها الاسلام فى محاضرات يلقونها ، ونشرات يذيعونها ، وكتب يطبعونها ، فيكونوا هم الأساتذة أبداً ، وأولئك كالتلاميذ ، ويكونوا المتقدمين إلى كل خير ، والمستأثرين بكل نفع ، لا ولكنهم يدلون أهلها على منابع الإسلام ، ويرشدونهم إلى الكتاب والسنة ، ثم يتركونهم ليتقلوا هم بأنفسهم إلى الإسلام . فلم تمرّ برهة حتى سبقوا العرب وبذوهم ، وكان منهم أئمة الدين ، وعلماء القرآن والحديث والفقه وعاد العرب الفاتحون وجلسوا بين أيديهم ، وتتلمذوا عليهم ، وأخذوا الدين عنهم . وهذه الخامسة .

ثم إن الفاتحين الأولين ، لم يعلنوا عن الإسلام بألسنتهم ، ولم يدعوا إليه بأقوالهم ، ولكن أروا الناس فى أخلاقهم ومعاملاتهم وسيرتهم أمثلة من أحكام الإسلام ، فحببوه بذلك إليهم ورغّبوهم فيه ، وها هم أولاء فى حمص بعد أن فتحت لهم ودخلوها وأخذوا الجزية من أهلها ، يبلغهم أن الروم قد توجهوا إليهم ، ويعرفون عجزهم عن مقابلتهم ، وحماية أهل البلد الذين صاروا فى ذمتهم ، ويعزمون على الخروج منها ، فيدعون البطاركة والرؤساء ، ويخبرونهم بعجزهم ويردون إليهم ما قبضوا منهم من مال الجزية كاملا فيبلغ العجب والإعجاب قرارات نفوسهم ، ويقولون : والله ما رأينا مثل هذا من الروم وهم أهل ملتنا ، وإن ديناً يأمر أصحابه بهذا لنعم الدين هو ، ولأنتم أحب إلينا منهم . هذه السادسة .

ولم ينجل الفتح ، عن غالبين ومغلوبين ، لا تزال تهيج بينهم الأحقاد ، وتضرم نيران الثورات والحروب ، كما هى الحال فى كل فتح ، وإنما انجلى عن أمة واحدة لها ربّ واحد ، ونبى واحد ، وكتاب واحد ، أمة مسلمة ، فلا عرب ولا فرس ولا روم ، ليس منهم من دعا إلى عصبيته ، بعد أن نبت يدا أبى لهب العربى القرشى الهاشمى عم النبىّ ، صلى الله عليه ، وكرمت أيدى بلال

الحبشي وصهيب الرومي وكان من أهل البيت الفارسي سلمان. هذه السابعة

بهذا استقر (الفتح الإسلامي) وخلد ، وبقيت هذه البلاد للاسلام إلى يوم القيامة ، وإذا كانت أحياناً حروب عصبية ومعارك على الملك ، فإنما كانت لمخالفة قواعد الإسلام ، والدعوة إلى العصبيات والقوميات ، وجعل الخلافة ملكا ، وتحويلها وراثية كسروية ، ولو بقيت بكرية عمرية ، لما كان خلاف ولا نزاع .

هذه هي الجوانب التي لم يشهدها ذلك (المذيع) ولم يعرفها ، فحسب أن الفتح الإسلامي كفتوح هتلر ، فتح غلبة وقهر ... كلا ، إنما هو فتح هداية وإصلاح . على أننا كنا أقوى من جند هتلر قلباً ، وأعظم بطولة ، وأعجب نصراً ، فلقد حارب هتلر بعدة ضخمة وعديد ، وجيش مدرب شديد ، ووسائل إلى التقتيل والتدمير يعجز عن تصورها إبليس ، ثم غلب هتلر ووسائله وجيوشه ، وقام العرب لفتح الدنيا أمام القرآن ، وهم لا يملكون جيشاً مدرباً ، ولا قائداً عسكرياً متعلماً ، وما سلاحهم إلا سيوف ملفوفة بالخرق ، ثم طحنوا بإيمانهم أعظم إمبراطورية في معركتين اثنتين ، القادسية ونهاوند ، وأزاحوا عن ظهر الأرض أثقل عرش ، وخلصوا دنيا القرن السابع من جبروت كسرى وقيصر ، ثم انتشروا في أرجاء الكون ، من جنان الشام إلى سهول العراق ومصر ، إلى صحارى أفريقية وتركستان ، إلى جبال الألب والقفقاس ، إلى جزر البحار إلى ثلج روسيا ، إلى لظى الحبشة ، لم يدعوا بقعة من الأرض إلا سكنوها وحكموا فيها باسم الله وبشرع محمد ، وهم كانوا القابعين في رمال الجزيرة ، يخشون تابعاً من أتباع قيصر في الشام ، ويرجون تابعاً من أتباع كسرى في العراق ، ويسمونه ملك العرب !

هذه هي مزية الفتح الإسلامي ؛ فإذا كانت الفتوح عاصفة مدمرة فهو النبت المرع ، وإن كانت القتل والخراب والفوضى ، فهو الحياة والبناء والنظام ... فيا أيها (المذيع) قد بطل تخرك بفتح هتلر ، وقد ذهب هتلر وفتوحه مع أمس الدابر ، ولم يعقب إلا الفساد في الأرض ، وسيذهب كل فتح قام على القهر واعتمد على الظلم ... ويظل (الفتح الإسلامي) راسخاً رسوخ الأرض ، باقياً بقاء الزمان ، ولا يزال مفخرة لكل من قال أنا إنسان !

فيا أيها المتنصرون ؛ هاتوا مثل هذا الفتح ، أو فاسكتوا ، لا تفتخروا ! !

(دمشق) **علي الطنطاوي**

لجنة النشر للجامعيين

تقدم كتاباً ممتازاً

الإمام

علي بن أبي طالب

أوفى ما كتب عن الإمام

للأستاذ

عبد الفتاح عبد المقصود

٣٤٠ صفحة الثمن ٢٥ قرشاً يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

الكتاب التالي

يظهر في أول أبريل

طفـــل في القرية

للأستاذ

سيد قطب